بين القاهرة واستنبول

للدكتور عبد الوهاب عزام

— ٤ —

متاحف طوب قبو سراى

يا أخى صاحب الرسالة :

سلام عليك والله يرعاك

أكتب إليك اليوم بعض ما شهدته أمس فى متاحف قصر طوب قبو الذى كان مباءة السلاطين عصوراً متطاولة . وعسى أن أكتب إليك من بعد طرفاً من تاريخ هذا القصر الأنيق الذى يمتد على إحدى هضاب المدينة من جامع أياصوفيا إلى رأس السراى (سراى بورنو) على بحر مرمرة :

للقصر أسوار بعد أسوار . الأبواب الخارجة تؤدى إلى حدائق واسعة . وقد ذكرت فى رسالتى السابقة أحد هذه الأبواب حين ألجأنى المطر إليه

سرنا فى الحديقة حتى انتهينا إلى باب آخر اسمه باب السلام فولجناه إلى حديقة أخرى واسعة تحيط بها أروقة ، ويبدو فيها إلى اليسار بناء ذو قباب ، أمامه رواق جميل . دخلنا فإذا حجرتان تتصل بهما حجرة مغلقة . اسم هذا البناء « قبة آلتى » أى تحت القبة . وكان فى العصور الغابرة مجلس الوزراء . وكان الوزراء من أجل

قبة آلتى (تحت القبة)

هذا يسمون وزراء القبة أو جلاّس القبة (قبة نشين) . فالحجرة التى إلى اليسار فيها أرائك للوزراء تتوسطها أريكة الصدر الأعظم

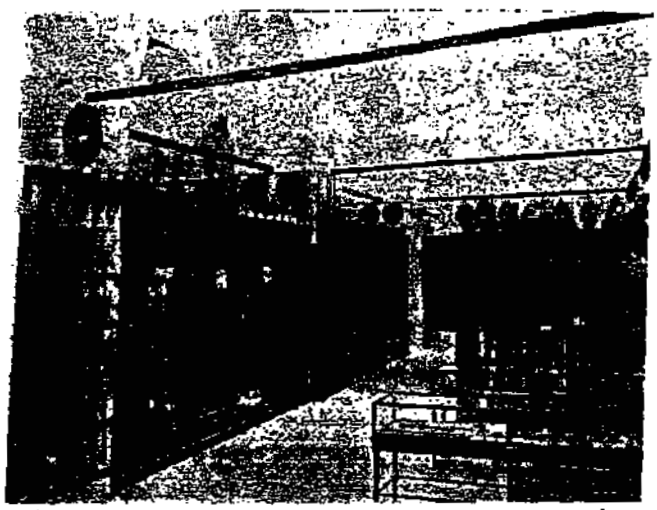

خزانة السلاح

ويرى فوق مجلس الصدر نافذة عليها شباك من الحديد ناقئ كان السلاطين يشرفون من هذه النافذة ليسمعوا مفاوضة الوزراء أو يروا استقبال الصدور السفراء . وكتبت إلى جانب النافذة كلمة الشهادة وطغرتان ، بخط السلطان أحمد الثالث ، والحجرة التى إلى اليمين كانت للكتّاب وفيها طرة للسلطان مصطفى الرابع ، وسجادة يقال إنها نسجت قبل خمسة قرون . وكانت الحجرة المغلقة لاستراحة الكتاب

وبنى هذا البناء فى عهد سليمان القانونى سنة ٩٣٣

ووراء هذه البَنيّة برج يعلو فى الهواء ٤٢ متراً عليه منظرة تطّلع على المدينة كلها وكان حوله بناء

وعلى مقربة من « قبة آلتى » حجرة كبيرة هى اليوم خزانة الأسلحة القديمة أسلحة الملوك والأمراء . يرى الداخل أمامه بلطات كثيرة من سلاح ممالك مصر ، وإلى يمينه خزائن زجاجية يطّلع فيها على سيوف لبايزيد وسليمان . وهذا سيف السلطان الغورى وهذا سيف طومان باى . وأما سيف قايتباى هذا فقد طبعه من حديد وجده عند الحجرة النبوية سنة ٨٨١ . وهذان سيفان لمحمد الفاتح ؛ هذا الطويل المحلّى للمحافل ، وهذا القصير العاطل للمعارك

وبينا نتأمل هذه السيوف ونعجب من قدمها ، أرانا المعرض ما هو أبعد فى التاريخ وأجل شأناً ؛ هذا سيف عليه اسم معاوية

هذه سيوف أموية طويلة مستقيمة ، وهذا سيف لعبد الله بن عمر ، آخر لكعب الأحبار . وهذا السيف الطويل العريض المذهب اسمه قد كتب عليه : « معاذ بن جبل كاتب رسول الله » بل هذا سيف عثمان بن عفان . سعدت حينا بالذكر ولم أكدرها بتحقيق الأسانيد

وتقدمت قليلا لأرى دروعاً لمماليك مصر : فهذه درع كاملة : قميص وسراويل وعلى الصدر أضلاع من الحديد

ومشيت إلى جانب آخر من الحجرة فرأيت الأقواس والسهام بأنواعها ونصالها ، والجُعَب ، وهي قِسيّ تركية من نبات القرنين العاشر والثالث عشر هـ . وهذه جعاب (تراكش) محلاة بالزركشة ، وهذه درع هنجارية محلاة الصدر بالذهب والفصوص الكريمة ، وهذه درع كتب عليها اسم الشاه عباس الصفوى ، لا أدرى أى العباسين الأول أم الثانى ؟

وليت شعرى لمن هذه الدرع التى اتخذت جُنة من الآيات والدعوات تقرأ عليها : يا خفيّ الألطاف نجنا مما نخاف . فالله خير حافظاً ، يا مالك الملك ، يا منجى من المهالك ، أنت الباقى وكل شىء هالك . وبيّن أن السجع يقتضى أن يكون : يا مالك الممالك الخ ولعله تحريف الكاتب أو الطابع

سنتقدم ونمر إلى خفتانات من الجلد أو النسيج الصفيق ومغافر من الجلد والحديد . بل هذه مغافر للخيل ؛ والفرس صديق الفارس في المآزق يحتاط له كما يحتاط لنفسه . وكانت الخيل تلبس المغافر على رؤوسها والتجافيف على أبدانها . وفى شعر أبى الطيب :

حواليه بحر للتجافيف مائج يسير به طود من الخيل أيهم

ثم ترى قوائم أعلام يعلم الله ماشهدت من ظفر وهزيمة ، ثم بنادق من عصور مختلفة فيها المحلى بالصدف الذي يضرب بالزند والصوان ، وفيها بنادق القلاع الثقيلة ، وضروب أخرى كثيرة

— ٢ —

تركنا خزانة السلاح وسرنا حتى اجتزنا الباب الثالث إلى قبة واسعة ، ويفضى الباب إلى رواق مستطيل مع الجدار ، وعلى الباب من الداخل كتابة وثلاثة ألواح مستديرة فيها أسماء السلاطين وتواريخ ولايتهم ووفاتهم من عهد عثمان إلى محمد السادس وهى تشغل لوحين ونصف الثالث ، وبقى الفراغ فيه ناطقاً باقتهاء الدولة

وأمام الباب حجرة يتقدمها رواق . وهى حجرة العرض (عرض أوده سى) وكانت مجلس السلطان لمقابلة السفراء ، ورجال الدولة أيام الأعياد وفيها سرير منجد تعلوه قبة من الخشب المصنع المزين وكان أثاث الحجرة وزينتها من آيات الإتقان والبذخ ولكنها احترقت سنة ١٢٧٣ وبقى بعض آثارها

وفى جانب الحجرة نافورة يقال إنها كانت تفتح حين يُسر السلطان حديثه حتى لا يسمع الذى فى الخارج

وفي الرواق الذى أمام الحجرة حجر من المرمر يقال إن قتلة السلطان سليم الثالث وضعوا جثته عليه وأروها للصدر علمدار مصطفى باشا

وتقدمنا قلنا ذات اليمين إلى (الخزينة) وفيها من نفائس التاريخ وأعلاق الملوك ما يكل الطرف دون تأمله ؛ الحجرة الأولى والثانية بهما أدوات الطعام والقهوة من الصينى الجميل فى ندرة من الألوان ، وفتنة من بدائع النقش ، صحون وطسوت وأباريق وفناجين ، وأدوات من البلور والنحاس المذهب ، وخوانات من الفضة ومواقد الخ الخ

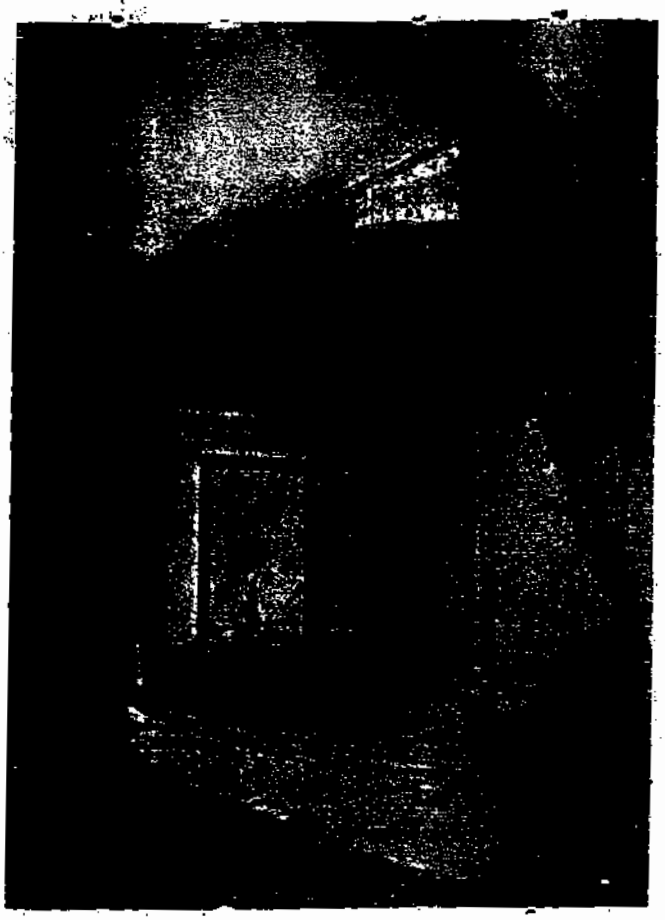

حجرة العرض

هذه المرائى اللألاءة تبهر العين حيثما توجهت فتشغل الناظر عن التفكير فيما وراءها من التاريخ . قلت ماذا أرى وماذا أدع ؟ هذه للعابر متعة دقائق ، وللباحث درس أشهر ، وللمفكر عبرة الدهر

حجرة الملابس

ثم حجرة الملابس ، يالله منظراً مهيباً ومقاماً هائلا ! صف ينتظم السلاطين من الفاتح إلى عبد المجيد . ها أنت ذا فى حضرة السلاطين الذين رجفت بهم الأرض قروناً وامتلأت صفحات التاريخ أجيالاً . هوّن عليك لا تُرَع . ما هى إلا ألبسة تحملها أعواد . أجل ! هذه الجبة ، وهذه العمامة الكبيرة ، وهذه الشارة (سرغوج) التى تعلو العمامة محلاة بالماس ، وهذا الخنجر المذهب الذى تتقلد هذه الزمردة الكبيرة — أجل هذا لباس الفاتح وزينته وسلاحه ، ولكن لا تُرَع إن هو إلا لباس على أعواد . إضحك إن شئت ، وتحدث كما تشاء ، ولا تأخذك هيبة الفاتح وصولته ، وإن شئت فقف خاشعاً مطرقاً مفكراً فانها ذكرى واقعة وتاريخ ماثل ، فاذا أخذتك سورة الذكرى واستشعرت رهبة الملك فارفع رأسك وانظر فليس أمامك الفاتح ، ولكن جبته وقفطانه وعمامته وخنجره

وانظر بجانبه ملابس بايزيد الصوفى : عقد من الزمرد حول حلقة من الجواهر يزين هذه العمامة ، وعلى مقبض الخنجر ثلاث قطع من الفيروزج زرقاء صافية . وتقدمت فوقفت أمام سليم وسليمان ! ولست أبالى حضرة سليم وسليمان ، فقد ذهب الدهر بسليم وسطواته ، وذهبت الريح بملك سليمان

وانظر إلى من بعد سليم وسليمان : هذان سليمان الثانى ومحمد الرابع على رأسيهما عمارتان تخالفان ما رأيت قبلا ، عمارة حمراء عليها لفافة صغيرة ، وشارة عظيمة جداً ؛ ثم انظر العمائم الطويلة المضلعة على رأس مصطفى الثانى ومن بعده

وهذا محمود الثانى الذى بذل فى الإصلاح جهده وبطش بالإنكشارية بطشته فى زى أوربى على رأسه طربوش عليه قطيفة سوداء وشارة . ثم عبد المجيد على رأسه الطربوش والشارة فقط . وهكذا يسير التاريخ متمهلاً من أبهة الماضى واستقلاله وجلاله إلى يسر الحاضر وتقليده وجماله

وفى وسط الحجرة صوالج لعبت بالأمور حتى لعبت بها الأقدار . وليت شعرى ما خطبُ هذا المهد السلطانى الصغير ؟ بل أى طفل من بنى السلاطين ترجّح فيه ، وأى يد من أيدي الأميرات أو الخادمات هزته ؟ وماذا كان حظ صاحبه من هذا المهد إلى ذاك اللحد ؟

وأما هذا العرش العظيم المسبغ الجوانب ذو القوائم الأربع فيقال إنه عرش الشاه اسماعيل ...

وبعد فياصديقى الزيات ! أخشى أن يطول الحديث فليقف الكلام عند عرش اسماعيل وموعدنا الرسالة المقبلة إن شاء الله

والسلام عليكم ورحمة الله

عبد الوهاب عزام

مجموعات الرسالة

تباع مجموعات الرسالة مجلدة بالأثمان الآتية

٥٠ السنة الأولى فى مجلد واحد

٧٠ كل من السنوات الثانية والثالثة والرابعة والخامسة فى مجلدين

وذلك عدا أجرة البريد وقدرها خمسة قروش فى الداخل وعشرة قروش فى السودان وعشرون قرشاً فى الخارج عن كل مجلد